شهدتهُ اول البارحة يلقي خطبة من خطبه المشهورة في سكان كابل يبسط لهم الكلام عن سفرة قام بها في الجنوب لتفقد الحراج المستحدثة . ووالله لا اقول الا الصدق قام ذلك الملك العظيم بلباسه العادي يخطب ساعتين وخمس دقائق بصوت جهوري لا يعتوره ملل ولا كلل يلقي خطبتهُ وظاهرها بيان تلك الرحلة وباطنها درس علمي كان يلقيه على افراد امتهِ يعرّف كلاً حقوقهُ الذاتية وواجباته الوطنية ازاء الحدود المنصوبة سالفاً في الافغان وخطورتها . وما من يوم الا وله مثل هذا الموقف . واذا جلت نفسهُ العظيمة فقد لا تجد فيها شيئاً من الانانية والعنجهية حتى ليتوج عباراته دائماً بكلمة (اتقدم لكم وانا واولادي فداء رقيكم)

فهذه يا سيدي عندي اظهر مظاهر النهضة الحديثة ومثلها تحيا الامم . ومن يشك في ما سردتهُ فليتفضل ويقبل ضيافتي ليشهد كل ذلك بعيني رأسه

ا — الكندي

التباين الخلقي

تأثير العوامل الباطنية الموروثة

اجملنا الكلام في بحثنا الاول[1] عن العوامل الطارئة على النفس التي من شأنها التأثير في الاخلاق تأثيراً مخصوصاً يوجهها الى وجهات شتى متباينة متناقضة منها ما هو حميد محبوب ومنها ما هو ذميم مستهجن كعوامل البيئة والعادة والتربية والتعليم والاهواء والارادة والميل وغيرها . ونرى الآن من المفيد تتمة لمقالنا التكلم عن الطبيعة الباطنية الموروثة الخاصة بكل نفس والتي تدفع بصاحبها الى ميول ذاتية قد تختلف عن ميول الغير حتى وان كان شقيقاً ، وتظهره باخلاق خاصة وارادة خاصة وافكار واعمال وخطط خاصة به دون شقيقه فنقول :

كانت الفلسفة في العهد السابق وعلى الاخص في القرون الوسطى ترجع التباين الخلقي لدى الافراد الى الامزجة واختلافها في كل فرد فكانوا ينسبون الى اصحاب المزاج اللمفاوي مثلاً ميولاً وطبائع واخلاقاً يعينونها وينسبون خلافها الى اصحاب

(١) انظر صفحة ٥٢٧ من مقتطف مايو ١٩٢٧

المزاج الدموي فالعصبي فالصفراوي ووقفوا فيها جامدين اجيالاً متعددة غير انهم كانوا في بحثهم هذا نظريين مرتكزين على آراء ومبادئ فلسفية بحتة غير مدعمة بدلائل علمية فسيولوجية منطبقة على سنن الحياة البشرية على ما جاءت عليه وعلى ما هو مشاهد فيها . ولكن في عهدنا الاخير اتجهت افكار العلماء المختصين المشتغلين بالوقوف على كنه وظائف اعضاء الانسان واسرار دقائق طبيعته وتراكيب حياته ومنتها الى البحث في الموضوع بحثاً وافياً ومعالجته من وجوهه كلها . فما عزوا على شيء علمي يعزز تلك المبادئ الفلسفية القديمة التي كانت ترجع التباين الخلقي الى اختلاف الامزجة لدى الافراد

وفي الواقع كيف كان يتاح لهم تعزيزها من طريق علمي والذهاب معهم الى ان اختلاف الميول والطبائع واختلاف المشارب والاخلاق يرجع الى اختلاف الوان اصحابها وكثرة الكرات الدموية في اوعيتهم او قلتها فيهم واصفرار وجوههم او احمرارها او قوة عقلهم وجهازهم العضبي او ضعفها الامر الذي قد يكون لهُ تأثير ظاهر في ميلهم الى الكآبة او الفرح بحسب ما قد يشعرون بهِ من ألم المرض او نعيم الصحة ، ولكنهُ على كل حال بعيد كل البعد عن قدرته على املاء خطط الحياة وتكوين النيات وبث روح الهمة والبسالة والاقدام والثبات واحتقار الصعاب والمهالك والمخاوف والموت في سبيل الحرية او الوطن او الشرف او المصلحة العامة وتكران الذات ، او على العكس من الاولى في ايجاد روح ضعيفة مجردة عن الارادة تجنح الى الانانية الذاتية او الى البخل والشح وتفضيل البقاء وطول العمر دون الاستهداف لاي خطر من اي نوع يكون والاستكانة الى العيش المهين الرغد مهما كان فيهِ من الضيم والمهانة والالتجاء الى مناقص الرياء والنفاق والكذب واساليب الخداع والغش والدس والنميمة لجر فائدة صغيرة ذاتية او ارتكاب الجرائم والسفالات لنيلها وما اشبه ذلك من الاخلاق والميول المنحطة . نعم نقول انها بعيدة كل البعد عن تكوين هذه الميول في النفس وعن تكوين النشاط وحب العمل واحتقار التقاعس والكسل او التحبب من البطالة . انها بعيدة كذلك عن تكوين طبيعة الميل الى الخجل من كل شيء او الجرأة فيهِ وعن ايجاد الميول الى تفضيل الحياة الجدية على نقيضها او تفضيل المرح والانفاق

الحياة في الهزؤ والضحك او في تكون طبيعة الميل الى الامانة والاستئمان والتصديق او الى قائضها من الخيانة والاستخوان والحذر والارتياب وعدم التصديق بسهولة وهكذا

فهذه النوعات المشاهدة من الميول والاخلاق لا يمكن ارجاعها باي حال من الاحوال الى مختلف الامزجة لفقدان العلاقة والرابطة بين ما تكون عليه الامزجة وبين طبائع المظاهر الذكائية التي توجه الاخلاق الى ما تتوجه اليه بحسب ما توارثه الابناء عن الامهات من تلك القوى الكامنة في نفوسهم والتي ترقيها وتنميها مؤثرات تطرأ عليها امثال التربية والتعليم والعشرة ومؤثرات اخرى بيّناها في بحثنا الاول بصرف النظر عما تكون عليه اصحابها من امزجة او بنيات

وانا مع تسليمنا الكلي بفضل مؤثرات البيئة والتربية والتعليم في الخلق وفي اعانها وتوجيهها الى مواطن الخير والفضيلة فانا كذلك نعتقد اعتقاداً لاريب فيه ان في النفس قوة كامنة بمجموعها العصبي تتوارثها عن امهاتها منذ ما تكون مضغة ترسم لصاحبها الخطة او الخطط التي يتبعها لحياته ومستقبله ويرى فيها صورته وسعادته حتى هذه التي تظهر من عين الآخرين قبيحة او سافلة او شريرة او بعيدة عن محجة الحكمة او الاعتدال او الذوق السليم او الناموس او الشرف ولكنها من حسن الحظ قابلة التحوّل والتأثر بكل شيء جذاب وجميل وكامل في ذاته . ذلك لان مشيئة الله التي ابدعت الحياة على الارض نظمت الحياة البشرية على ان تخضع لسنة التوارث حتى في الصفات والاخلاق وفرضت فيها لسلوك كل فرد حيّ من افكاره ونياته وخططه واعماله الخضوع لشيئين متوارثين متمازين احدهما عن الآخر في وظائفها وكيات قواها بحسب ما قد يكون الفرد قد نال من توارثه لآبائه وأمهاته

هذان الشيئان او بعبارة اصح هذان المستودعان اللذان هما اشبه الاشياء بالدينامو تكمن فيهما قوتان كهربائيتان احداهما قوة النشاط والاخرى قوة الشعور والاحساس

كذلك ارادت سنة الله ان لا يكون من الضروري ان تتوازن هاتان القوتان في مقاديرهما في الجسم الواحد فقد تقل في الاولى وتكثر في الثانية وبالعكس . اذ ليس من المفيد انهُ عند ما تنمو قوة النشاط لدى فرد لاقصى درجة قد تبلغها في المراكز العصبية ان تكون القوة الاخرى كذلك بالغة عندهُ منتهاها في الحساسية . فقد شوهد عند بعضهم ان بلغت فيهم قوة النشاط مبلغاً قاصياً للغاية وكانت فيهم القوة الثانية رغم

هذا منحطة انحطاطاً مريعاً على العكس من الاولى . ففي هذا المعنى تكاد تكون الرابطة بينهما مفقودة او هي في حيز العدم

ولما كانت هاتان القوتان التي اليهما يرجع على الاغلب التباين الخلقي بسبب ان مستودعاتهما قد تكون ممتلئة بالدقائق والجواهر الكهربائية التي تظهر الاخلاق الظهور البديع عند نوابغ البشر وتكونها تكويناً باهراً وتجعل الارادة عند اصحابها اشد واقوى من الصلد وارسخ من الجبال الشامخة ، فانها قد تكون عند الآخرين فارغة منها او من القدر الكافي منها فتنحط اخلاق اصحابها الى أسفل الدركات واحط المنازل وعندها تكون الارادات خاضعة محكومة منقادة لما تمليه عليها الشهوة او الارادات الاخرى المستمدة نشاطها من المستودعات الغنية الطافحة بالدقائق الكهربائية في مجموعها العصبي . وقد لا تكون المستودعات طافحة كثيراً ولا فقيرة كثيراً وتكون في جواهرها بين بين او تكون اقرب الى الكمال او الدرجات القصوى او تكون على العكس اقرب الى السفلى منها او تكون وسطاً وهكذا كل بحسب ما توارثهُ من تلكم الدقائق والجواهر عن آبائهِ واجدادهِ وبحسب ما شبَّ عليهِ بحكم نبل التربية والتعليم او انحطاطها او فقدانها

وقبل ان نفيض الكلام عن هاتين القوتين نلاحظ أن كل ما تقدمهُ يتعلق بالاخلاق في جميع حالات الصحة والحياة العادية لا في الحالات المرضية التي قد يقع فيها المرء ويكون من شأنها التغيير من خلقهِ كامراض الهدة والنورستينيا والامراض العصبية . فهذه ولا شك حالات عرضية تدفع الانسان الى الخروج عن اطواره مدفوعاً بتأثير المرض الطارىء عليهِ ثمَّ تزول عنهُ بزوالها بحيث يرجع الانسان بعد خلاصهِ وبرئه منها الى ما كان عليهِ من اخلاق قبل وقوعهِ فيها

الاخلاق

ولكن ما هي الاخلاق ؟ اليست هذه التي يمتاز بها انسان عن اخيهِ الانسان بسلوك مستقيم طيب مهذب راق محبوب يستحق لاجلهِ تمجيد الناس وتقديرهم لهُ . وعليهِ يكون الناس في الحقيقة فريقين : فريق ذو اخلاق . وفريق مجرد عن الاخلاق . فريق يتمسك بالحق ويسلك في سيره سبيل النزاهة والثقة والامانة والصدق والشرف ويلاحظ ضميره ودينهُ ويخشى الله في معاملتهِ لابويهِ وزوجهِ واولاده واقاربهِ

وجيرانه وسائر الناس بان يعاملهم بما يحب ان يعاملوه به ، ويعمل على ما فيه تنفيذ الشرائع. وبديهي ان في احترام الشرائع خيراً للجميع . لان الشرائع كلها ترتكز في روحها على ثلاثة اركان : الاول المعيشة بالشرف. الثاني عدم الاضرار بالناس . الثالث اعطاء الحق لصاحبه . ففي احترامها او العبث بها تتبين الاخلاق صحيحها من فاسدها ويتبين معها الميل الى النظام العام او الجنوح الى الخلل والفوضى والهمجية التي هي طعمة الفريق الثاني ونقمة على الطوائف البشرية بل على الحضارة

الفريق الاول هم الذين نقصدهم ونطلق عليهم اسم اصحاب الاخلاق . وهم الذين اختصوا ويختصون على الدوام بالفضل والثناء والمحبة وتقدير العاقلة والجيران والمعارف في كل جيل وكل عصر بين مختلف الشعوب والقبائل بالرغم مما يكون اتاهم من ارهاق وتعذيب بسبب ثباتهم في اخلاقهم . فقد تركوا صحائف حياتهم نقية طاهرة من المزريات طافحة بجليل الاعمال وكريم المواقف التي تذكرها لهم الابناء والاحفاد بفخار ليس فوقه فخار في العالم

فأخلاق امثال هؤلاء هي التي نقصدها ونقصد الحض على التخلق بنظائرها . وشعبنا الكريم المصري لا شك يقدر ما يعود على نهضته من الثبات والتقدم اذا نحن اعتمدنا في تربية ابنائنا على تحسين البيئة التي يعيشون فيها وحصنهم من معاشرة الاواسط المنحطة وشحنهم تعليماً راقياً وارشادات ومواعظ قويمة وعوّدناهم الصدق والصراحة وحب العمل واحتقار الصعاب والمخاطر والمخاوف كلما عارضت امانيهم ووقفت حائلاً دون مقاصدهم النبيلة ، (وهي عادات تعتبر من اهم مظاهر الاخلاق الراقية في الانسان) وفهمناهم منذ نعومة اظفارهم بأن العالم بجميعه آخذ بأسباب التقدم والرقي وان علينا نحن المصريين واجباً مقدساً هو مجاراته في صناعاته وفنونه ومتاجره ومعارفه وعلومه وآدابه وكل شيء تعتمد عليه الحضارة الراهنة في ذهابها بالامم الناهضة الى الامام . وان هذه المهمة لن نبلغها الا بلوغ مستوانا الاخلاقي ما هو مقدور له من المنازل السامية . وان هذا وحده هو الذي يجعلنا جديرين بان نكون ورثة هؤلاء العظماء الاماجد اجدادنا الفراعنة الذين يرجع الى فطنتهم وافكارهم واخلاقهم تدين العالم باسره ! وسنوفي البحث في مقالات تالية فيما يتعلق بقوتي النشاط والشعور وعلاقتهما بالذكاء وعلاقة الجميع بالاخلاق

عثمان مرتضى